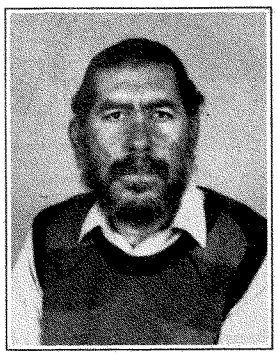

إدريس الخوري

الرجل والبذلة

فجأةً اكتشف الرجل أنه أصبح شخصاً آخر وأن صورته السابقة، المعروف بها بين زملائه، انمحت الآن من ذاكرتهم وأن اسمه سوف يتغير من إلى... من المجهول إلى المعلوم، من السيد إلى الأستاذ. فعلى مدى نصف ساعة تقريباً كان كل شيء قد انتهى تماماً وشكله الخارجي أعيد «بناؤه» من جديد ولم يعد له أي خيار يتراجع أو يرفض. إذ ما معنى أن يظل الكاتب، دوماً، سجين هندامه السابق قابعاً في بذلته الرمادية القاتمة دون أن يخرج منها إلى الألوان الزاهية؟ وقال له صديقه الحميم الحريزي، بمجرد خروجهما من عند الحلاق الفرنسي مسيو كلود، الكائن صالونه بزنقة فوجيرار بباريس: «والآن ما رأيك أيها السيد الداودي؟ هل نظرت إلى نفسك جيداً في المرآة؟ أنظر إلى شكلك ودُرْ وتَبَرْعَمْ، لقد أصبحتَ «جديداً» علينا وعلى نفسك. إن هذه الكسوة الأنيقة لضرورية لك وللوقت ولرجاله، فتأمل هيأتك مرة أخرى، إنك تليق بهذه الكسوة التي تليق بك».

ـ ولكني أكاد أحس بالاختناق. ثم إن الجو حارّ.

ـ لا عليك، سوف تتعود على مثلها، لن تسير وحدك في شوارع هذه المدينة الكبيرة مسافات طويلة، وتتفصد عرقاً، سوف تكون بجانبي في السيارة أو وحدك في التاكسي أو في الميترو، وآنذاك لن تتوسخ ياقة قميصك.

ـ لا أحب الأقمصة البيضاء!

ـ جرب أن تلبس قميصاً أبيض وسترى، إن اللون الأبيض رمز للصفاء وللطهارة، كما أن قميصاً أبيض، تحت بذلة زرقاء أو سوداء، يعطيك «لوناً» آخر في الحياة اليومية.

ـ ربما، غير أنني أحب السير لاكتشاف مناطق المدينة.

ـ ولو أن هذه المدينة ليست ملوثة بشكل فظيع مثل مدينتك، فهناك «حزب الخضر» الذي يناضل من أجل خضرة المدينة وخضرة الناس!

سكت الكاتب ولم يجب. نظر إلى الأرض وإلى السماء ثم إلى الأرض كأنه يبحث عن شيء ما، سار بجانبه. لقد فعلها الحريزي فعلاً، فهل كان ضرورياً أن يعتقله، في اليوم التالي لوصوله، ويذهب به إلى مسلخ الحلاق كلود ويجزّ شعر رأسه الغزير نهائياً؟ ماذا فعل المسكين حتى تزال صورته في رمشة عين؟ بالنسبة إلى السيد الحريزي وهو كاتب أيضاً وحريص على أناقته، فإن الأمر جد بسيط؛ إن هذا الكاتب القادم من تخوم أخرى يجب أن يكون في الصورة المتخيلة عنه: أنيق، جنتلمان، يرتاد الصالونات ويقبّل أيادي النساء المتصابيات، ويبتسم لهذا أو يغفر لذاك. لكن السيد الحريزي، رغم أناقته، لا يفعل كل هذا حتى في حياته الشخصية. لذلك فإن الداودي يجب أن لا يكون مثل الآخرين المعلمين، فما ضرّ لو أن الحريزي جرّ الداودي إلى اكتشاف نفسه؟ ما ضرّ؟ لا شيء، إن أي كاتب ليس هو بذلته بالذات، فكر الداودي. إنه فكره وقلمه معاً، ولكن الناس لا ينظرون إلى الكاتب إلا باعتباره بذلة مكوية وليس باعتباره كاتباً، أليس كذلك؟ غير أن الداودي لا يرتاح إلا في صورته القديمة.

ـ حقاً قال الحريزي، غير أن على المرء أن ينسخ نفسه من حين لآخر.

سارا معاً، عبرا ساحة شبه مستديرة ثم حديقة صغيرة يرتع فيها أطفال، إلى أن وجدا أنهما يدخلان زنقة طويلة وضيقة، كانت الزنقة خالية من المارة، على اليمين واليسار عمارات والنوافذ مغلقة، هو شهر ديسمبر البارد وقد ارتدى الباريسيون معاطفهم الرمادية والسوداء والبنية الثقيلة ولفّوا أعناقهم بشالات سوداء وحمراء طويلة تصل حتى ركبهم. فوق رصيفي الزنقة أوقفت سيارات صغيرة وليس ثمة كائن يخترق فضاءهما الخاص إلا بضع سيارات تمر من الشارع المقابل، كذلك الحافلات.

قال الحريزي: لنذهب إلى المطعم لنتغدى سوف نجده غاصاً بالرواد، إن الفرنسيين لحريصون على الأكل في الوقت المحدد.

ـ لماذا؟

ـ لأنهم يخافون الوقت، وإذا لم يشتغلوا فإنهم لا يأكلون. تصور إذا سقط أحدهم في الشارع مغمى عليه فإنهم لا يهتمون به، بل يمرون من دون أن يلتفتوا إليه.

ـ أنانيون، قال الداودي، بخلاء.

وأخرج علبة سجائر «جيتان» وشرع يدخن. كان الحريزي يسرع في خطوه والداودي يتبعه ببطء. بشوية، قال الداودي، أسرع، قال الحريزي، فلن نجد لنا مكاناً في المطعم. أسرع الداودي في مشيه ثم خرجا من زنقتهما ودارا إلى اليمين: شارع عريض مليء بالمقاهي والمتاجر والمطاعم والسيارات الموقوفة عند الرصيفين المتقابلين. دكاكين نساء ورجال يمرون

من دون أن يلتفتوا إلى بعضهم. الجو رمادي، كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف زوالاً، فتح الحريزي ملف أحدهم فضحك الداودي، نميمة جميلة وبريئة، ما رأيك؟ هوذا مطعم الحريزي المفضل عند المسيو برنار، سبق الحريزي الداودي عند الدخول ووقف أمام الاستعلامات وقال الحريزي بالفرنسية عفواً مسيو برنار بسرعة، وقفا بقامتيهما الطويلتين وانتظرا، إلى اليمين ثلاثة شبان وفتاة يلعبون الفليبرز ويتحدثون عن الجولات الخاسرة والرابحة، هرج ومرج، رائحة الأكل تزكم الأنوف، جاء المسيو برنار بالمرطبات الباردة وخاطب الحريزي بقوله انتظر قليلاً، سوف تفرغ الطاولة رقم ٧ الموجودة في الزاوية.

ـ شكراً، أجاب الحريزي، كان مسيو برنار يروح ويجيء بينما تحمل زوجته الصحون إلى الزبائن، وفي غمرة هذا اللغط المتكاثر كان الداودي يتأمل نفسه عبر المرآة المستطيلة المقابلة التي تعكس وجوه الرواد الواقفين الذين يدخنون ويرتشفون فناجين القهوة ويتحدثون عن فريقهم الوطني في الكرة المستطيلة الذي انهزم بالأمس أمام إيرلندا، وقد صبّوا جام غضبهم على اللاعب الأسود سيرج بلانكو الذي لم يكن في يومه. كان الداودي فعلاً شخصاً آخر فما بين البارحة واليوم تغير شكل الرجل تماماً ولم يعد هو الداودي الذي كان من قبل، ذلك أن شعر رأسه مقصوص عن آخره ولحيته مشذبة، مثل شجرة في بستان، ووجهه برز من حصار الشعر الكثيف، وقال في نفسه هل أنا هو هذا أو لا كذبت؟ يدخن الحريزي ويتبادل الحديث مع برنار في حين يمسح الداودي المكان والرواد بعينيه الكليلتين، قال الحريزي للداودي هل تعبت؟ لا، أجاب الداودي، عندما غادر رجل وامرأة مطعم مسيو برنار فجاء هذا الأخير وقال للحريزي بسرعة: هيا، لقد فرغت طاولتك، شكراً، وانتقلا إلى طاولتهما في الزاوية اليسرى.

ثمة مرآة عمودية بجانب الكتف اليسرى للدوادي تعكس نصف وجهه الأيسر وقد جاءت مدام برنار وقالت لهما ماذا تأكلان؟ أخذ كل منهما ورقة وجبة اليوم واختار غداءه الخاص.

في غرفة صغيرة بفندق ما أمام المرآة: ها أنت الآن وحدك في غرفة صغيرة بفندق صغير بمدينة كبيرة، لقد أكلت وشربت وشبعت وتجشأت ودخنت سيجارة وودعك الحريزي عند رصيف الفندق بسيارته وقال لك لنلتقِ إذن في هذا المساء. سنتعشى معاً في مطعم «الغلوازيون» بصحبة ريما الدمشقية. انظر إلى شكلك جيداً هل أنت كائن أم بذلة؟ إن الكائن كائن والبذلة بذلة ستبلى البذلة ذات يوم وستتمزق بفعل التقادم وترمى في القمامات أو تعطى لأحد المتسولين. لقد أعطاك الحريزي هذه البذلة لتنسلخ عن جلدك القديم و«تلبس» جلداً آخر جديداً، فهل أنت مستعد لأن تكون كائناً آخر؟ ولم لا؟ في مدينتك تتحرك البذلات مثل الدمى المتحركة، فالبذلة هي التي تتكلم وليس الكائن، ثم ماذا ستخسر، أيها الرجل الآخذ في الانقراض، إن أنت فصلت بذلة جديدة كل شهر عند الخياط السيد العلمي؟ لا شيء، ستحترمك المدينة وستنادي عليك يا أستاذ تعال! لكن لا عليك فالإنسان إنسان والدجاج دجاج. هذه هي اللافتة التي حملها عمال معمل البيض في استعراض فوق رؤوسهم وهم يهتفون بأعلى صوتهم. في هذه اللحظة خلع الداودي بذلته الزرقاء ونزع ربطة عنقه وارتدى منامته ثم ارتمى فوق السرير. الغرفة بسيطة وفقيرة، تناول كتاباً وبدأ يقرأ. كان الكتاب رواية تتحدث عن رجل فقد ظله. وإذ استغرق في القراءة راح في نوم عميق. كان سفر البارحة من آسيا إلى أوربا جدّ متعب.

في الخامسة مساء استيقظ الداودي على رنين الهاتف فاسكته بيد مرتعشة، في الطرف الآخر من المدينة كان الحريزي يتكلم: هل استيقظت؟ نعم أجاب الداودي، إذن بعد ساعة انتظرني في المقهى المجاور للفندق. قام الداودي ورأسه منتفخ بأفكار غامضة وأحلام مضطربة وذهب إلى الحمام ليغتسل، ماء دافئ ينعش الجسم ويعيد إليه الروح. تساءل: فأن تكون إنساناً أو بذلة ماذا يعني في نهاية الأمر؟ لا شيء، إن البذلة ليست إلا مجرد ستر العورة! هذا كل شيء. أما الإنسان فباق وخالد بذاكرته.

استحم وخرج وارتدى ملابسه الأولى وأحس بانتعاش نفسي وتحرر من الاختناق. خرج من الغرفة الحقيرة وأحكم إغلاقها. دخل المصعد ونزل، أعطى المفتاح للسيدة ناتالي وغادر الفندق، الخامسة والنصف مساء. هوذا الشارع هادئ إلا من بعض السيارات المارّة. في المقهى المجاور جلس الداودي وطلب فنجان قهوة وتناول سيجارة وشرع في التدخين، تأمل المارّة السائرين نحو حتفهم، كانوا حانين رؤوسهم، لكنهم لم يكونوا أنيقين بما فيه الكفاية باستثناء بعض النساء الجميلات المتبرجات. مرّ أمامه رجل أصلع طويل القامة وفي يده قفّة فارغة وعلى عينه نظارة طبية، تذكر الداودي بأن هذا الرجل المار أمامه ليس شخصاً عادياً وأنه رآه في صور كثيرة في الصحف والمجلات وأنه وأنه... بل إنه ميشيل فوكو. رجل عادي لكن رأسه مليء بأفكار ضخمة وجريئة ضد المؤسسات، ولكنك لست ميشيل فوكو ولن تكون، أنت مجرد كاتب بسيط بحاجة إلى من ينقذك من أزمتك الدائمة. فالبس جيداً حتى تكون لك قيمة في بلدك وإلا هزك الما..! ضحك الداودي من نفسه ومد ساقيه الطويلتين، هذا المساء سيكون المشهد مسلخاً آخر عند الحريزي، فليكن إذن، يقترب المساء من نهايته ويتوقف الحريزي بسيارته السوداء، على جسمه بذلة أخرى وعلى عينيه نظارة سوداء، هو الذي لا يشبه بقية عشيرة الكتابة، لكنه محتفظ بأصوله الشاوية وبنفسه المتمردة. قام الداودي وترك ثمن قهوته على الطاولة وسار بضع خطوات حتى اقترب من السيارة. ركبها وسار في أزقة وشوارع باريس.

ـ لماذا غيرت بذلتك الجديدة؟

ـ لأستريح قليلاً.

ـ أنت تعلم أن ريما الدمشقية ستكون معنا هذا المساء، كان عليك أن تبقى في صورتك.

ـ ليس الأمر كبيراً إلى هذه الدرجة. هل سيطالبونني بها عند باب المطعم؟

ـ لا، ولكن...

ـ هل عندك شي كاسيت؟

ـ نعم

ـ إذن فلنستمع قليلاً إلى الموسيقى.

فتح الحريزي جهاز الكاسيت وانطلق صوت «العياشية» رخيماً، هل نحن في باريس أم في الشاوية؟

ـ نحن فيهما معاً. أجاب الحريزي وضحك.

شوارع فسيحة وأنيقة وأزقة ملتوية، معمار قديم، مطاعم، أضواء نيون، مقاهٍ مكتبات، بوتيكات، سينمات، تماثيل، كل المدينة مقاه ومطاعم، وبين كل مقهى ومقهى مقهى وبين كل مطعم ومطعم مطعم.

ـ هؤلاء هم الفرنسيون: إنهم يأكلون في المقهى ويشربون في المقهى ويكتبون في المقهى ويقرأون في المقهى ويتعاشقون في المقهى!

قال الحريزي: قل لي، هل أنت إنسان أم بذلة؟

أجاب الداودي: لم أعد أعرف فأحياناً أنا إنسان وأحياناً أنا بذلة!

ـ ولكنك طوال حياتك لم تكن بذلة، كنت إنساناً فائضاً عن الحاجة.

ـ هكذا تريد لنا الدولة.

ـ يجب أن تزاوج بين البذلة وبين الأفكار. فالبذلة لا تلغي كونك إنساناً يحمل أشعاراً.

ـ البذلة مجرد ستر للعورة.

ـ البذلة هي أن تكون أنت.

دخل الرجلان زنقة صغيرة فأوقف الحريزي سيارته جنب الرصيف ونزلا، كانت ريما الدمشقية، وهي امرأة متوسطة القامة وجميلة، تنتظره عند باب المطعم، على كاهلها معطف طويل رملي اللون وعلى شفتيها الحمراوين ابتسامة مطمئنة، قبّلها فوق خدها المتوهج ودخل الجميع. كان المطعم دافئاً ورائحة الأكل تنفذ إلى الخياشيم. هذا هو الرجل البذلة، قال الحريزي لريما الدمشقية، انظري إليه، ماذا يشبه إذن؟ أجابت ريما: يشبه الإنسان. قهقه الحريزي وانتحى ركناً قصياً في عمق المطعم شبه مظلم وقال هنا. جلست ريما الدمشقية قبالة الحريزي والداودي جنب ريما وبدأ الحديث عن الأكل وأنواعه. كان طبقاً كبيراً جاهزاً وما على الزبون إلا أن يخدم نفسه بنفسه، باستثناء المشويات. وعندما بدأ الثلاثة في تهيئة أطباقهم الثلاثة من الجزر والخس والفجل والبصل والطماطم. عندها خيم دفء المكان على الجميع، ونزعت ريما الدمشقية معطفها الرملي. تقدم إلى طاولتهم شاب فرنسي يحمل قيثاراً وأخذ يعزف ويغني أشعار لويس آراغون، جميل، قال الداودي للحريزي، إنه يشبه المغني المعروف جان فيرا. جيء بالمشويات وبالأقداح وترك المغني الشاب يغني لهذا الطقس الدافئ وانحنى الثلاثة على صحونهم يلتهمون. يدخل زبناء ويتخذون أماكنهم، يتقاطع الكلام ويلتقي ثم يتقاطع، هذه ليلة ريما الدمشقية، أما الداودي فطرف شاهد عليها، وسواء كنت إنساناً أو بذلة فالمرء لا يمكن أن يسير عارياً في الشارع. أليس كذلك؟ أجاب الحريزي: هذا شغلك.

يستمر الكلام والأكل والشرب. يستمر المضغ والإنصات والالتفات. كانت الرغبة المشتركة عند الحريزي وريما الدمشقية تزداد توهجاً، وهكذا، فكلما ازداد الليل انسحاباً ازداد التوهج.

• مارس ١٩٩٣

ربيع جابر

رواية

شاي أسود

دار الآداب

لو أفتح جمجمتي وأفرغ محتوياتها على هذه الطاولة مثل سطل – يفكّر حسام وهو يقضم التفّاحة – لو أحاول أن أقوم بعمليّة تصنيف واحدة لتلك المحتويات، ترى هل تكفيني حياة واحدة لإنجاز المهمّة؟